

قطار الزمن

جاء القطارُ
من خلف بحارٍ
يسيرُ مُختالاً
يحملُ سلاحاً
بضائعَ جديدة
كُتُباً وأفكارَ

وصل المدينة ظهراً
دخل المحطة فوراً
بلا استئذان
صفارة إنذار
أو انتظارَ

قطارُ الزمن عاصفةٌ هادئةٌ
رقيقةٌ عابثةٌ
تحملُ مطراً وعُبار
خيراً ودَمار
لا تطلبُ إذناً للدخول
لا تحدد زمن الوصول
لا تعرف معنى الانتظارَ

كانت المحطة عامرةً
والجموعُ غفيرةٌ صاخبةٌ
تقودها حَفنةٌ صعاليكٍ وأحرارُ

ترفعُ شعاراتِ وطنية
تُرَدُّ أهازيجَ شعبية
تهتفُ بأعلى الصوت
للحياة والموت
عاشت فلسطين حرةً عربيةً
المجد للعروبة والإسلام
الموت للصهيونية والاستعمار

هاجتُ الجماهيرُ حين رأتِ القطار
غضبتُ
هاجمتهُ بعنف
رجمتهُ بالحجارة والنفايات
أهانتُ كرامتهُ
سلبتُ سلاحه
نهبتُ بضائعه
جمعتُ الكتب وأحرقتها
صادرتُ الأفكار وشوّهتها
رمتها في بئرٍ مظلمةٍ
موحشةٍ كالقبر
عميقةٍ مرعبةٍ كبطن البحارُ

بعد صراعٍ مريرٍ طال
هدأ الإعصارُ
زحف الظلام رويداً رويداً
خطف الضياء
أنهى النهارُ

عادت الجماهيرُ إلى بيوتها
نامتْ على نارٍ
تنتظرُ الصباح
لتواصل الكفاح
وتُكمل المشوارُ

اغتنم القطارُ اللئيم براءة الليل
تفاهمَ مع أصدقائه القدامى
سلاطين الأمةِ الأبرارُ
لملمَ جراحه
وبقايا كرامته
تسلل هارباً من المدينة
ولاذ بالفرار
يجوب السهولَ والجبالَ
يقطعُ الصحارى والأنهارَ

عاد مكسورَ الجناح
في العين حسرة
وفي القلب انكسارُ
وفي الرأس صداغٌ قويُّ
صدى هتافات الأمس
شتائم
هتافات، خطابات وأشعارُ

استيقظتْ الجماهير على نبا هروب القطار
فرحتْ
احتفلتْ بالفوز

تذوقتُ حلاوة الانتصارِ
اختلفتُ على توزيع الغنائم
تبادلتُ الاهانات
اتهمتُ البعض بالتقصير
وأخرين بالخيانة
وكثيرين بالعمالة للصهيونية والاستعمارِ

تفرقتُ شيعاً وطوائفَ متنافسة
قبائلَ وعشائرَ متناحرة
تشاجرتُ فيما بينها
أقسمتُ على الأخذ بالثأر
تراشقتُ بالحقد والنارِ

جاءتُ العساكرُ مُسرعة
يقودها ضباطُ أحرارِ
تدخلتُ بحزم
تذرعتُ بحماية الأمن والاستقرارِ
أعلنتُ الثورة على الرجعية
والحربَ على الصهيونية
أقسمتُ باسم شهداء الأمة الأبرارِ
تعاهدتُ على تحرير الوطن
وتصفية العملاء والاستعمارِ

وباسم الوحدة والحرية والاشتراكية
قتلتُ المئات
اعتقلتُ الآلاف
دمرتُ قرى آمنة بلا ذنب

هدمت تماثيلَ كثيرةٍ بلا سبب
نهبت قصوراً وأثارُ
استباحت كرامة الناس
استولت على خيرات البلاد
شوّهت الثقافة
خصت الفكر
وأعادت للذكرى عهد هولاكو المغوارُ

تفرّق الصعاليك والأحرار
تشتتوا في كل مكان
توزعوا بين قتيلٍ وجريح
سجين ومُطارد
منفيٍّ ومخصيٍّ
وعبدٍ ذليلٍ للسادة الأبطال
يُبررُ الكبتَ والبطشَ
يُفلسفُ العنف والظلم
يزيّفُ التاريخ
ويقولُ في أحفاد هولاكو أروع الأشعارُ

بعد جيل من الهزائم
وعهود من الجرائم
من التراجع والانحدارُ
عاد قطار الزمن من جديد
يزور محطة الثوارُ
يحمل معه ما استجدّ من منجزات العصر
ومستلزمات القصر

ألبسةً باريسيةً
أحذيةً إيطاليةً
عطراً مُحملياً
خمرًا وسيجارًا

وصل القطارُ المدينةَ ليلاً
دخلَ المحطةَ متسللاً
يُخفي الوجهَ القديمَ
يمدحُ العهدَ الجديدَ
يُناققُ الحكمَ العتيذَ
يُبشِّرُ بالتماءِ والازدهارِ

كانت المحطةُ هادئةً
تكادُ أن تكونَ خاليةً
يُظللها سوادُ الليلِ
مهجورةً
يعلوها الغبارُ

وهناك على أرض الرصيفِ الباردِ
نام أطفالٌ صغارٌ
وحولهم أمهاتٌ وآباءُ
جلسوا قلقين مرهقين
طال انتظارهم لوصول القطارِ
ورحلةِ العمرِ
لعالمٍ جديدٍ بلا قيودِ
بلا أسوارٍ

وعلى الرصيف الآخر
جلس صعايلك زمانُ
يتسامرون في مقهى ثقافة عهد كانُ
وفوق رؤوسهم عُلّق شعار المرحلة
"لا يعلو صوت فوق صوت المعركة"
يتحدثون عن الوحدة والحرية
النظم الثورية والاشتراكية
يلعنون الصهيونية والاستعمارُ
يغازلون النسوة والصبية
يشربون الخمر
يدخنون السيجارُ
ويُحوّلون مقهى ثقافة العهد البريء إلى بارُ

سألهم القطار عن الحال والأحوال
عن الثورة والشعب
عن الأهل والأطفال والأشغال
قالوا له
الثورة بخير
والحال عال العالُ
الشعاراتُ تجددتُ
القصورُ تعددتُ
الثقافةُ تغيرتُ
وتماثلتُ القادةُ الملهمين
وصورُ الثوارِ الملتئمين
تملأ الشوارعَ والميادين
تُغطي كل جدارُ

تحميه من نور الشمس
من عبث الأطفال
ومن الغبارُ

السجون ملاءً بالمشاغبين
دعاة الحرية والديمقراطية
عملاء الرجعية والاستعمارُ
والعساكر متواجدة، كوجود الله، في كل مكانُ
أقوالها كتبٌ مقدسة
صالحةٌ لكل زمانُ
تحمي الناس من الغزو الثقافي
تصونُ عقولَ الشباب من مفاسد العصر
نظريات التطور
انشطار الذرة
صعود البشر إلى الأقمارُ
وتفرض على الشعب والوطن حصار

أما عامة الناس فلا تزال نائمة قريرة العين
بعيداً عن مقولات الشرق والغرب
ثقافة الالحاد والكفارُ
هذا شهر رمضان المبارك
شهر الصيام والدعاء والاستذكارُ
والباعة يجوبون الأزقة
يبيعون الفول والكشري
عصير الخروب والطرشي
والأطفال يلعبون في الحواري

يغتسلون بماء المجاري
يحمون حول الجوامع والمقاهي
ينتظرون بفارغ الصبر
صوت المؤذن ومدفع الإفطار

تهد القطار حسرة
حَزَمَ حَقَائِبَهُ
تَأَهَّبَ لِلرَّحِيلِ
أشار على سكان الرصيف البارد بالصعود
قرر الفرار قبل طلوع النهار

فجأة
ودون سابق إنذار
ظهرت حفنة من العساكر
حماة الوطن والثورة الأبطال
اتجهت مباشرة نحو القطار
رحبت به بحرارة
استلمت منه البضاعة
دفعت الثمن بالدولار
لم تسأل حتى عن الأسعار
ألبسةً باريسية
أحذيةً إيطالية
عطراً مخملياً
خمراً وسيجاراً

وقبل مغادرة المحطة
وقع القطار اتفاقيةً تجاريةً

تمنح الثوارَ حقوقاً احتكارية
بييعون الألبسة
يوزعون الأحذية
يُروّجون الخمر
ثقافة السيجار والاستهتارُ

استغل بعض الصعاليك انشغال القطار بالثوار
تسللوا خلسة
ركبوا العربة الخلفية
سافروا وغابوا عن الأنظارُ
يزورون أمصاراً وأمصارُ
يستقرون في ديارٍ غير الديارِ
تركوا خلفهم أهلاً وصحباً
ذكرياتٍ جميلةٍ حزينة
وطناً يعيش انتحارُ
هربوا
في القلبِ حسرة
وفي العين انكسارُ

بعد جيل آخر من التردّي والانحسار
عاد قطار الزمن
يزور قديم الديارِ
يحمل أفكاراً وقيماً جديدة
تتحدث عن الحرية والديمقراطية
حقوق الإنسان والبيئة
المال والرأسمالية

سقوط الثورية والاشتراكية
العولمة والمعلوماتية
ثقافة غريبة عالمية
بلا تاريخ أو هوية
قيماً عارية الوجه
بلا خِمارُ

دخل القطارُ المدينة متردداً
توقف قبل المحطة بأمطارُ
كانت المحطة متهالكة
خاوية بلا زوارُ
تسكنها الحشرات والنفايات
يكسوها الغبارُ
بقايا آثار عتيقة
قبر ذكريات
مهجور بلا أزهارُ

وهناك فوق جثمان مقهى زمان
شَيْدَ ضريحٍ مهيب
جلس من حوله بقايا صعاليك الأمس الذي كانُ
شيوخ بدا عليهم الترف والترهل
يتحركون ببطء
يتكلمون ببطء
غائبون عن الوعي
يفكرون فيما كانُ

سألهم القطار كعادته عن الحال والأحوالُ

عن الناس والأشغال
نظروا إليه باستغراب
سكتوا بلا جواب
خاطبهم القطار مطمئناً
قال

أنا قطار الزمن الذي يأتي بلا ميعاد
يزور البلاد متى أراد
يحمل ما استجدّ من منجزات العصر
ومستلزمات القهر والنصر
بضائع، مواقف، قيماً
علوماً، فنوناً وأفكاراً

تعرفّ عليه الصعاليك حينئذٍ
رحبوا به بحرارة
قالوا له

الوطن بخير والحال عال العال
جاءنا النفط بكثرة
تدفقت الأموال بلا مكيال
تغير الناس
تبدلت القيم والتقاليد
انتشر التزلف والابتذال
الكذب والكسل والاحتيال
أصبح القويّ من الناس غنياً
والغنيّ حكيماً ذكياً
أصبح الضعيف فقيراً
والفقير كماً غيباً

والقائد الملهم أصبح نبياً
وثوار الأمس رجال أعمال كبار
عملاء
وثجار
والمدارس والجامعات والمستشفيات
أصبحت بضاعة رائجة
لها بورصة وأسعار
تباع وتشتري بمن فيها
الشاري والبائع سمسار
والربح، لا العلم، هو المعيار
والأخلاق والمواهب والكرامة
أصبحت بضاعة رخيصة
تباع في سوق النخالة والبحار
بأبخس الأسعار

أما أطفال الأزقة والحواري فقد كبروا
أصبح البعض أئمة مساجد
يحثون الناس على الإيمان والإحسان
يدعون المؤمنين للصلاة والصوم
يحذرونهم من مغبة النسيان
والبعض الآخر يستهزؤون بالقيم
يعيشون بلا عمل
يتسكعون في الشوارع والمقاهي
يقضون الليل في الحانات والبارات
يركبون أفخم السيارات
ينفقون المال بلا حساب

أنانيون، وصوليون
ناقمون على المجتمع بلا أذار

أما عامة الناس فلا تزال كما عهدتها
مشغولة بالعزاء والهناء
بالوداع والاستقبال
بالنفاق والرياء
بالقيل والقال
أرهقتها الولايم والمآتم
تغفو ساعة النصر
تصحو ساعة الانكسار
مشلولة الإرادة والعزيمة
تنتظر الأقدار

قوافل ابل هائمة
في صحراء قاحلة
يقود كل قافلة زعيم
رئيس دولة
شيخ عشيرة
أمين حزب
أمير جماعة
ضابط
عمدة قرية
مختار
رجل حكيم عميق الأغوار
يلهث خلف سراب صحراوي

محطة ابل ومواشي
بعيدة عن النهر والبحر
معزولة عن العصر
لا يصل إليها قطارٌ

أما نحن صعاليك الأمس
فوضَعْنَا عال العالُ
تغيرنا بتغير الأحوالُ
تطورنا بتدفق الأموالُ
كسالى بلا أشغالُ

تنهد القطار حسرة
سألهم عن معنى التطور
نوع التغييرِ
عن الوطن والأمصارُ

تبرع أحدهم، قال
دفنا فكر الثورة والثورية
مزقنا شعار الاشتراكية
تناسينا مفهوم العدالة الاجتماعية
قبرنا القضية القومية
أقمنا لها صريحا مهيباً
ومن حوله زرنا حديقة آمالُ
غابة أكاذيب وأوهامُ
يؤمها الزوّارُ
أصبحنا حراس قبور محترمين
نؤلف الكتب في مدحها

نزيف التاريخ من أجلها
نقول الشعر في حسنها
نتباكى على مجدها وعزها
ونعيش على ريعها أحراراً

نعقد مؤتمرات حوليه
نخطب خطباً حماسية
نتبارى في البلاغة العربية
نتحدث بالفصحى
نفكر بالعامية

هذا ينافق الحاكم
وذاك يمالق الظالم
والكل يركض لاهتاً خلف الولايم
يستجدي المال والسلطة
يقلد ثقافة الثروة
يشرب الخمر
يقامر
يدخن السيجاراً

بكى القطار
رثى أمة دخلت نفق الاحتضار
تبرر كل هزيمة
تزيّف كل حقيقة
وتنتقص كل انتصار
تشك في إخلص المؤمنين
تهزأ بفكر العلماء والمثقفين

تلهث خلف الدجالين والنصابين

دون ورع

دون وقار

جاهلة

تحسب الاستكانة تواضعاً

والخنوع تسامحاً

والصراحة تحسبها وقاحة

كفراً وإباحة

وتحسب الحب عيباً وعاراً

والمجد، كلّ المجد

تحسبه انتحاراً

أمة تقادمت ثقافتها

شاخ فكرها

خبت عزيمتها

تعيش عصراً غير عصرها

العقلاء فيها مجانين

والجهلة شطاراً

المخلصون مساجين

والدجالون أحراراً

الأغنياء أسباد

الفقراء أوباش

العلماء أعباء

والبلهاء أبراراً

أمة ساذجة

تنتظر

لا تعرف من تنتظر
ماذا تنتظر
ولمَ الانتظارُ
تعيش في نفق طويل
مظلم بلا أنوارٍ
لا تعرف لغير الذل خيارُ

استأذن القطار حراس القبور
تأهب للرحيل والفرارُ
استوقفوه للمرة الأخيرة
سألوه متى سيعود ثانية
قالوا له
لا تقاطعنا بعد إن شِخنا
لا تحرمنا أحاديثك العذبة
سماع الجديد من الأخبارُ

بكى القطار وقال
لن أعود ثانية إلى هذه الديارُ
ماذا افعل لو عدت
من يشتري بضاعتي
أين أستريح
المحطة، كالمقهى، ركاب ودمارُ
ورفاق الأمس غابوا
البعض مات
والبعض هاجر
والكل شاخ وشاخت الذاكرة

تقادت الأفكار والأخبارُ

والوطن غابة كبيرة

وحوشها كثيرة

تتصارع بلا سبب

تتقاتل بلا أعدارُ

والضحايا تتساقط كأوراق الخريف

والقتلة أبطالُ

أنتم أمة ضيَّعتْ ألف فرصة وفرصة

اختلفتْ حول كل قضية وفكرة

قافلة تاهتْ في شبح المكانُ

تتخبط خارج هذا الزمانُ

تنبشُ جذور التاريخ بلا كلل

تبحث عن هوية

حكمةٍ بالية

قضيةٍ منسيّة

تبحث عن ثارٍ قديم

رمزٍ عتيق

مَجْدٍ بائدٍ وأحجارُ

تغوص رويداً رويداً

في بئرٍ مظلمةٍ بلا قرارُ

فاتها آخر قطارُ

د. محمد ربيع

www.yazour.com